في لهجات الغرب الجزائري

أ.د مكي درار
قسم اللغة العربية
جامعة وهران

الإنسان كائن اجتماعي، ناطق معبر، متواصل مع غيره بمختلف الوسائل، ومن أهم وسائل التعبير والتواصل(اللغة) وهي أنواع، منها: الإشارات، والإيماءات،والرموز،على مختلف أشكالها، البصرية، والسمعية، والإيحائية، وغيرها. وأرقى التعابير ما كان أصواتا منتقلة من فكر المرسل، حاملة فكرة، إلى المتلقي.

ولما كان الإنسان اجتماعيا (بطبعه) يحيا في جماعات وتجمعات، مختلفة الأفراد والأجناس، والأفكار، والعادات، والتقاليد؛ كان عليه، أن يجري اتصالات بجميع من يحيط به في محيطه، من بني جنسه ومن غيرهم، مرسلا مرة ومتقبلا أخرى، ولكل جنس مطالب وحاجات، وتصورات وغايات. وكان له وعليه، أن يجد لكل حاجة وسيلة إرسال واستقبال. وكان معظمها كميات صوتية معبرة.

ثم تعدد أفراد المحيط، وتعددت المطالب تبعا لذلك وتنوعت، وكلما ظهر في المحيط جديد، خلق له الإنسان ما يعبر به عنه، فظهرت في محيطه مفردات عديدة متنوعة. بتنوع الحاجات والموجودات. ولما كان طابع الحياة توليدا وتطويرا وتغييرا وتجديدا، كانت مفردات الحياة كذلك.

ومن هنا، كان لمفردات التعبير، حالات كحالات الإنسان في تطوره وأطواره، إلا أنها أكثر منه بقاء،وثباتا، ومقاومة.ومن ثمة، اتخذ طابع التعبير صورا وأشكالا، وأسماء وأوصافا. ويمكن إجمال ذلك في ثلاثة:

اتخذت المفردة الصالحة الشائعة المتفق عليها اسم (الفصيحة) والفصاحة وضوح في الصوت، وسهولة في النطق، وشيوع في الاستعمال.

وكان للتعبير مستوى ثان، دون الفصيح من الألفاظ، وهي المفردات الشائعة في الاستعمال، ولكنها دون الفصيحة، في الشيوع والوضوح وتحديد المعنى، فكانت عامة ليست وحيدة في المجال فسموها (عامية)

ولما كان الإنسان طموحا (طماعا) كان راغبا دائما في الإنجاز والإنتاج، وتطوير وسائله، مما أضفى عليه طابع الصبيانية في الرغبة المتجددة في التصنيع والتخلي، كانت مفردات اتصاله بغيره كذلك. أولها مفردات قديمة ثابتة واضحة فصيحة.وثانيها مفردات شائعة معلومة، ولكنها ما زالت تحتاج إلى تنضيد وتجميل وصفوها بالعامية.

وثالثها مفردات تعد في الدرجة الدنيا بالنظر إلى تشكيلتها الصوتية،وتنظيمها الصرفي، ومجالها العملي، بها يلهج بعض المخترعين، الصانعين المؤثرين في مناحي الحياة الإنسانية الخاصة، وسموها لهجة.

ومفهوم اللهجة يقابل وظيفيا مفهوم الفصحى بالتضاد، لأن الفصحى هي وسيلة التعبير الرفيع للطبقة الخاصة العليا، واللهجة هي التعبير القاعدي البسيط؛ للطبقة الدنيا الخاصة من العاملين. ومن هنا، تكون كل من الفصحى واللهجة لغتي خواص وتخصيص.

تبقى وسيلة تعبير ثالثة من حيث التوظيف والاستعمال وهو ما يسمى دارجة. والدارج في المفهوم اللغوي العام، هو المولود الجديد الصغير الذي ما زال لم يستقر على صورة وحال. ولهذا المولود مسار واحد وهو، إما الانتقال إلى الأعلى؛ ويسمى لهجة؛ أو يتوقف عن الحركة في منشئه، فيدفن ويخزن وينسى. وكأنه لم يكن، ولم يدرج على البسيطة.

ويُستقى مما سبق، أن لصور التعبير والاتصال اللغوي الإنساني، أربعة أشكال ومفاهيم تنازلية، وهي الفصحى، دونها العامية،ثم اللهجة. وأخيرا الدارجة. والمجال مفتوح للانتقال إما صعودا، أونزولا، وذلك مرهون بحركات الإنسان وتحركاته، في أطوار حياته ومجالات محيطه.

نشأة اللهجة:

اللهجة مفهوم يوحي بالميل والانزياح، فهو خروج عن المعتاد في الأداء اللغوي، ومرد ذلك في ما يبدو، هو عجز المنطوق الأصلي،عن التعبير على المستجدات من المختلقات اليومية، المتساوقة مع حاجات الإنسان، أو التعصب للقديم المتحجر في بعض الحالات، وفي الحالين، تكون اللهجة أو العامية ناشئة عن العجز والجمود والتحجر الكائن في القديم"[1]"ومن جهة أخرى يمكن إرجاع ظهور العامية إلى عجز القوميات والأقليات على استيعاب مفردات لغة أخرى تعد دخيلة بالنسبة لهم. أو عن عجز التقعيد للعاميات واللهجات الجارية على ألسنة القوم.

لهجات الغرب الجزائري:

الجزائر بلد واسع الأطراف مترامي الحدود، ويعد أكبر بلد في إفريقيا بعد السودان قبل انقسامه من حيث المساحة. ومر بتقسيمات عديدة أقامها المستعمرون، آخرها التقسيمات الفرنسية التي جعلت من الجزائر ثلاث ولايات، واحدة شرقية، ومقرها الإداري قسنطينة، وثانية وسطى

ومقرها الإداري العاصمة، وثالثة غربية ومقرها الإداري وهران.وهناك منطقة شبه محايدة معزولة هي الصحراء.

وقد كان سكان الولايات رحلا منتقلين، مما جعلهم مختلطين متداخلين يتعذر التمييز الدقيق بين ساكني ما يسمى حدودا حليا. ولاية وهران الحالية كانت تضم تسع ولايات حالية وهي: تلمسان، وتموشنت، وبلعباس، ومستغانم، وغيليزان، وشلف، ومعسكر، وسعيدة، والنعامة. وإذا قلنا اليوم وهران وعنينا بها حدودها الإدارية الحالية فيصعب أن نجد للناطقين فيها لهجة يتميزون بها. إلا لهجات تعود لمناطق قديمة كلهجة سواحلية في شمال تلمسان أو لهجات ساكني جنوبها كابن بوسعيد. أما المتبقى، فهي لهجات متداخلة الخصائص والميزات. وجميعها تعود إلى أصول عربية أوغير عربية.

خصائص لهجية:

إذا قلنا لهجات غرب الجزائر، فذلك اعتراف منا مسبق، أن كثيرا من المفردات المستعملة صارت فصيحة، باعتبار درجات استعمالها وشيوعها. وأن كثيرا منها منقولة، محولة من لغات أصلية معروفة، متعارف عليها بالتذكر، وكثير منها تعود مرجعياتها إلى العربية الفصحى،لغة القرآن بالدرجة الأولى.ومن هنا يمكن حصر مرجعيات لهجات غرب الجزائر في خمسة ينابيع.

- العربية الفصحى القرشية التي يتلى بها القرآن باختلاف القراءات
- مفردات أصابتها تحولات صوتية داخلية
- الأمازيغية، وبخاصة منطوق الشمال.
- اللغات الأروبية (تركية إسبانية فرنسية)
- مفردات مختلقة محليا تعبيرا عن أوصاف وحالات

تنويع وتفريع

أشرنا من قبل إلى حال الإنسان بقولنا: هو كائن متغير. والمتغير فيه هو قسماته، وسلوكه، وتفكيره، ثم تعبيره. ومرد تغيراته، إلى انتقاله الفكري أو الجسدي، أو هما معا. ويقودنا هذا إلى أن التغير الحقيقي يتجلى في التعبير الإنساني. ولما كان التعبير في أصله صوتيا؛ معبرا عن خلفيات ومرجعيات اجتماعية وفكرية. ومنطلقا من معطيات مستقاة من ينبوع ما ذكنا، كان ذلك منه إمالات عن المعهود، وسموه لهجة.

اللهجة قالوا فيها (اللام والهاء والجيم أصل صحيح، يدل على المثابرة على الشيء وملازمته، وأصل آخر يدل على اختلاط في الأمر)"[2]"وقال صاحب اللسان في ذلك: (لهج بالأمر وبه اعتاده، وملهج بهذا الأمر مولع به)"[3]" ويلتقي النصان في قول الأول: (ملازمة) وفي قول الثاني (اعتاده).ويصبح مفهوم (لهج) ملازمة واعتياد لأمر ما، وهو هنا اللهجة. ويستقى من جذور مفردة (لهج) بعد ثالث، أشار إليه ابن جني في قوله: (والنون أخت اللام)"[4]" وإذا استبدلنا النون باللام، تحولت المفردة إلى (نهج) والنهج طريق وطريقة ومسار.

وننتهي مما سبق إلى أن الإنسان كائن مفكر مدبر معبر، (متلون) وهو مخبوء تحت لسانه،ومن تلوناته تغيرات تعبيره، بالتطوير والتجديد والتمديد المستمر. ويقتضي مفهوم التغيير بعامته أن يكون شيء موجود يعد أصلا وأصيلا ليتم الميل عنه يسمى تغييرا؛ ومفاد هذا أن للمتغير أصلا حاد عنه، ومرجعية يتكئ عليها، ومنطلقا مسوغا لوجوده.ومن هذا كله يكتسب التعبير الجديد مشروعيته.

تبدلات نوعية:

للهجات الغرب ميزات مشتركة وأخرى متميزة، وتعود تلك التغيرات والمتغيرات إلى عوامل تاريخية وبيئية واجتماعية، منها الأصيل المتغير والدخيل المفروض والمستورد المطلوب، والمتطور المرغوب، ومن ثمة يمكن تقسيم المتغيرات إلى عدة أقسام.

أولا: تبدلات صوتية داخلية.

من أمثلة التحولات الصوتية الداخلية، مفردة (طريق) التي لها ثلاث صور سمعية وهي:

- تريق بترقيق الطاء وقلبها تاء في شمال ولاية تلمسان
- طريئ بقلب القاف همزة في مدينة تلمسان.
- طريق بالقاف اليمنية،(g) معظم غرب الجزائر

تحولات في مختلف الصوامت.

صوت القاف

- تقلب القاف العربية قافا يمنية قلبا غير مطرد في ولايات غرب الجزائر، فيقولون:

(الحق (g)) في (قال الحق)هنا يقلبون القاف القرشية الأولى، (قال) قافا يمنية، ويبقون على الثانية (الحق) قافا قرشية

تقلب القاف،كافا (مستفلة مرققة) في شمال ولاية تلمسان (جهة الساحل) فيقولون (كال الحك) في قال الحق.

- تقلب القاف كافا (مستعلية مفخمة) في شمال ولاية تلمسان فيقولون (الكلب) في القلب
- تقلب (القاف) همزة في حاضرة تلمسان فيقولون (آل الحأ) في قال الحق

صوت الكاف

- الكاف تقلب (تاء مشبعة بالشين) في شمال ولاية تلمسان (سواحية) فيقولون (تشلب) في الكلب

صوت (الثاء) المثلثة من فوق

- تقلب الثاء تاء مرققة في ولايات: وهران غليزان معسكر وفي جنوب ولاية تلمسان فيقولون (تلاتة) في ثلاثة.ويقولون (تم) في (ثم) وهنا يتغير المعنى.

صوت (الذال) المعجمة

- تقلب الذال المعجمة دالا مهملة في المواطن التي تقلب فيها الثاء تاء، وتبقى على أصلها في المواطن التي تبقى فيه الثاء على أصلها

صوت (الطاء) المهملة

- تقلب الطاء المهملة المفخمة (تاء) معجمة مرققة في قرى مختلفة من شمال ولاية تلمسان، فيقولون (التريق) في الطريق.

ثانيا : مفردات أمازيغية ذات معلم صوتي دال

هناك ما يمكن وصفه بالمطرد في التعرف على أصول مفردات مستعملة في مختلف جهات الوطن، والغرب هو المبتغى هنا. ومن أمثلة ذلك:

- بداية المفردة بهمزة، ويظهر هذا في كثير من أسماء الأماكن، بخاصة في مثل: أرزيو، ولاية وهران. أربوز، ولاية تلمسان. أغبال ولاية تلمسان.

ونستخلص من هذا أن كل مفردة مبدوءة بهمزة، هي أمازيغية الأصل.

بعد صوت الهمزة كظاهرة تمييزية هناك صوت آخر مميز وهو صوت (التاء) فنقول:

كل مفردة اسمية مبدوءة بالتاء،المثناة من فوق،فهي أمازيغية الأصل في مثل: تلمسان، تموشنت، تاغبالت. تاخمارت. تامزوغة.

ثالثا: مفردات واصفة مختلقة محليا.

اللغة وسيلة اتصال، وهي أنواع كما ذكرنا من قبل، فقد تكون إشارات، أوحركات جسدية، أو عضوية؛ أورموزا بصرية، أوسمعية (صوتية). ولكن عندما نقول: لهجة، أودارجة، أو عامية، فإنما نعني بها المدركات السمعية، (الصوتية). ومن ثمة، فهذه المفردات جميعها ظواهرصوتية. وينبغي أن تدرج في موضوع الدراسات الصوتية. لتنقيتها، وتنظيمها، وترقيتها، ثم توظيفها في مواضعها.

ومن المفردات المختلقة في الحياة اليومية: ما نسمعهم يقولون فيه: ايهرقم، ايهمهم، ايمهمه، ايبقق، اينقرش، ايشنشن، اينشنش، ايحبحب،.... فهذه المفردات، وما شابهها، قريبة للتنظيم والتثبيت من غيرها، لسببين:

- أولهما، مجيئها على ميزان صرفي ثابت، فهي خماسية التكوين، سداسية النطق، تقابلها في العربية: استخرج واستنطق. واستحسن...
- ثانيهما، أنها إيحائية المعنى، فمن نطقها يمكن تصنيفها وإلحاقها بموضوعها ومجالها ومستواها.

رابعا::تبدلات بالإضافة والانتساب

قدمنا أنواعا من المفردات المستعملة في الجهات المعنية بالدراسة، وحصرناها في نماذج، أكثرها ما يلحق المفردة من تحولات صوتية داخلية، أو ملحقات خارجية، ثم ما يبتدع ويختلق، بحسب الحاجات والمناسبات، وذلك جميعه في الإفراد، ومن بعده نأتي إلى ظواهر لهجية يمكن أن توصف بالمركبة في الدراسة، أو المستوى الثالث اللساني. وهي مفردات ذات شقين على الأقل واحد عربي أصيل أو محول داخليا وآخر دخيل على العربية ومن أمثلة ذلك:

- طريق البايلك (عربية تركية)

- طريق القودرون (عربية فرنسية)
- طريق المنجورة. (عربية تصورية) لأن النجارة في تسوية الخشب فتصوروها في تسوية الأرض قبل تعبيدها
- طريق النصارى، مفردة (نصارى) تعني في ولاية تلمسان المستعمر الأجنبي غير المسلم وبخاصة الغربيين، فيقال نصراني (أي غير مسلم).

محافظات شائعات

توجد مفردات محافظات على أصلها، وبدون علامة صوتية تميزها، ولكنها فرضت نفسها فتفصحت وشاعت، ومعظمها أسماء أماكن في مثل: وهران، غليزان، بطيوة، أم عسكر. ندروما، رمشي.

نهاية المطاف:

بعد الذي قدمناه وأوضحناه، نصل إلى ماسقنا كل هذا من أجله، وهو ما يمكن أن نسيمه (تنقية، وترقية، وتنظيما للمنطوق اليومي.في لهجات غرب الجزائر. وهو البحث على إلحاق هذه الذخيرة اللغوية المستعملة في الحياة اليومية للمواطن.

هذه الذخيرة المقربة من ميدان الأداء، المبعدة من ميدان التثبيت، لافتقارها إلى رموز بصرية كتابية، والعربي قال (العلم صيد والكتابة قيده) وللهجات الجزائرية كثيرة متنوعة، مؤدية لوظيفتها اللغوية، محرومة من حقها في التسجيل، لعدم توافر ما يكفيها من العلامات الصوتية التي تعبر عن مختلف تلويناتها النطقية، وهذا ما نسعى إلى تحقيقه.

وفي الأخير نقول: لهجات غرب الجزائر، هي منطوقات أصيلة، ثابتة الأصوات والأشكال، مستقرة الإيحاءات والمعاني والدلالات، لا يعوزها إلا

التعبير الصوتي البصري، المسمى (الكتابة الصوتية) وهو ما عملنا له، ومن أجله، في هذا العمل. مشفوعا بنظرة في التنضيد والتنظيم والتوظيف. وذلك في ما يمس حياة الفرد اليومية في المرحلة الأولى، ثم ينتقى منها ما يرفع إلى ما فوقه، في ما يعبر عن المستجدات والمستوردات. في حياة الفرد الجزائري استقبالا وإرسالا وتبادلا.

مصادر ومراجع البحث:

1. للتوسع في هذه الفكرة يراجع أسعد أحمد علي، تهذيب المقدمة اللغوي للعلائلي، ص،202، مط، دار السؤال للطباعة والنشر، بدمشق، ط،3، 1985م

2. أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج،5، ص،214 مادة (لهج)

3. ابن منظور لسان العرب، ج،2، ص،359، ع،1، س،22، بمادة (لهج)اختصار

4. أبو الفتح عثمان بن جني، سر صناعة الإعراب ج،1، ص،231